المبرد وإثبات الذات من ذخيرة التكوين إلى آليات التفكير

أ.عبدالله كروم
جامعة أدرار– الجزائر

ملخص:

أحاول في هذه المقالة الكشف عن شخصية أبي العباس "المبرَِد " الذي عاش في القرن الثالث الهجري، من خلال نقطتين:الأولى إثبات شخصيته في عصر ملئ بالباحثين الكبار في اللغة والأدب، والجدل، واشتداد الصراع بين المراكز العلمية، والصراع بين القديم و الجديد.

الثانية هي إبراز الآليات التي تجلي تفكيره الواعي كواحد من اللغويين الفاعلين في الدرس الأدبي والنقدي والبلاغي. كل ذلك ينم عن شخصية المبرَِد العلمية والمفكرة، المؤثثة على ذخيرة موسوعية، وحذاقة في الرأي، ومكنة في جوانب معرفية مختلفة أهلت شخصه للنبوغ وفكره للذيوع.

Résumé

Dans le présent article j'essaie de dévoiler la personalité, Abou Al-abbas "ALMOUBERRIDE" qui a vécu au troisième siècle de l'Hégire, et ce à travers deux points issensieles:

Dans un premier temps, j'essayerai de prouver son caractère dans une époque de grands des chercheurs en langue et littérature arabe, la controverse, et le conflit entre les centres scientifiques,ainsi que la querelle des anciens et desmodernes. Et dans un deuxime temps, je mettrai en évidence les mécanismes par lesquels se manifeste sa conscience en tant que linguiste actif dans la littérature, la critique, et la rhétorique. Tout cela dévoilera la personalite scientifique et encyclopédique de 'ALMOUBERRIDE'.

مقدمة:

ليس سهلا أن تحفر اسمك في عصر وصف عند العرب بالعصر الذهبي، وفي قرن بالغ الشأو، تميز بوفرة الإنتاج العلمي والمعرفي والأدبي، وعاش فيه جمهرة من العلماء والأدباء والبلغاء من أمثال ابن السِّكيت(ت243هـ) والمازني(ت249هـ)، وأبي حاتم السّجِستاني(250هـ)، والجاحظ(ت255هـ) وثَعلَب(ت291هـ) وغيرهم من أعلام الدرس اللغوي والأدبي

لقد استطاع محمد بن يزيد أبو العباس المبرِّد(بكسر الراء المشددة أوفتحها) أن يخلد اسمه ضمن قامات القرن الثالث الهجري، وأن يتوج بلقب خاتمة اللغويين المنضوين تحت يافطة المدرسة البصرية، ويقدم الإضافة النوعية بتحرير مسائل في أصول النحو وقضايا أدبية ولغوية، و كذا معضلات تأويل النص القرآني.

إن إثبات الذات في عصر ملئ بالجدل والكلام واحتدام الصراع بين المراكز العلمية، واشتداد المنافحة بين القديم والجديد، كل ذلك ينم عن شخصية المبرد العلمية، المؤثثة على ذخيرة موسوعية، وحذاقة في الرأي، ومكنة في جوانب معرفية مختلفة أهلت شخصه للنبوغ وفكره للذيوع.

لقد أتاح التكوين للمبرّد من الإطلاع الواسع على المادة التراثية العربية من أدب جاهلي، وقرآن كريم، وحديث شريف، وأيام العرب، ونحو، وتاريخ، وفصاحة، وبلاغة، ومكتسبات المدرسة البصرية.

وأما التفكير والرأي فقد تشربه من مادة الجدل والكلام والمنطق الذي يظهر توظيفه له من خلال توسعه في العلل النحوية واستكثاره من القياس.

1- **المبرد التاريخ والجغرافيا :**

أ / **التسمية والمولد:** ويسمى محمداً ولقبه أبو العباس وكنيته المبرِّد، ابن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليمان بن سعد بن عبد الله بن زيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم، وهو ثمالة، ابن أَحْلَجَن بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزْد بن غوث .[1]

ويؤكد ابن خِلِّكان أن مولوده كان يوم الإثنين عيد الأضحى عام (210 هـ)[2] من شهر ذي الحجة، واختلف المترجمون لسيرته في تحديد سنة الميلاد بدقة، فهناك بن قال إنها سنة (207هـ)، وآخر ادعى أنه ولد في 206هـ، ويكاد يتفق المؤرخون أن مكان ولادته هو العراق وبالضبط البصرة، كما ذهب إلى ذلك ياقوت الحموي.[3]

ب/ النشأة وفعالية الكنية:

نشأ المبرد بالبصرة حيث ولد وترعرع ينهل من مصادر المعرفة المختلفة التي كانت تؤطر البصرة بوصفها مركزا إشعاعياً تراكمت فيه العلوم منذ نزلها الصحابيان أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك، ثم تداول على تربتها الحسن البصري ومحمد بن سيرين وصولاً لأيمة الدرس اللغوي والأدبي الذين شكلوا مدرسة البصرة وأبانوا عن نماء العقل العربي وتطوره[4] من خلال القضايا التي طرحوها في تقعيد اللغة وتلقي الأدب بشقيه النثر والشعر .

---

[1]- وردت ترجمته في المصادر التالية: وفيات الأعيان،ج4 ص 314، تاريخ بغداد ج380/3 إنباء الرواة ج3، ص214، الفهرست ص59

2- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان،بيروت: دار صادر(دط)، ج4، ص 319.

[3]- معجم الأدباء ج19،ص:111.

[4]-فجر الإسلام، أحمد أمين، دار صادر الجزائر، (د،ط) 2009، ص211.

وفي تلك الأجواء نشأ أبو العباس وبدأ نجمه يصعد، وكانت لكنيته " المبرد" فاعلية تعكس إرهاصاته الأولية نحو النبوغ والتفوق، فقد قيل إنه " لما صنف المازني كتاب الألف واللام، سأل المبرد عن دقيقة وعويصه فأجابه بأحسن جواب فقال له : قم فأنت المبرد بكسر الراء، أي المثبت للحق،فغيره الكوفيون وفتحوا الراء" [1] أي الجميل، فتكون صفة خلقية (بفتح الخاء)لا خلقية علمية ترفع مكانته، ويبدو أن الحسن قد لامسه، فحدث الناس عنه : ما رأى المبرد مثل نفسه.

غير أن الثعالبي ذكر سببين آخرين لتسميته بـ " المبرد" هما: الأول أنه من باب حظ الأسماء بأصحابها

(وكل له من اسمه حظ)، واستحق بذلك قول الشاعر:

إن المبرد ذو برد على أدبه في الجد منه إذا ما شئت أو لعبه

وقلما أبصرت عيناك من رجل إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

والثاني أنه لقب بذلك على الضد، كما لقبوا الغراب بالأعور رغم أنه معروف بحدة البصر،[2] ووصفه عبد الله الدينوري بوصف ينحى به لجماله فقال : ((كان حسن الوجه، فصيح العبارة)) .[3]

ج- بين المبرد البصري وثعلب الكوفي: جايل المبرد أحد أئمة اللغة العربية وأعلامها، ألا وهو ثعلب وكانت بينهما معارضات ومنازعات، ولعل بهما ختم

---

[1]–بغية الوعاة، الحافظ السيوطي، تح: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية،ط1، 2004م،ج1،ص:222

[2]- مقدمة المقتضب، المبرد، تح: حسن حمد بيروت : دار الكتب العلمية، ط 1420،1 1999، ص 7

[3]- وفيات الأعيان، ص314.

تاريخ الأدباء المحققين حسب تعبير ابن خلكان، غير أن المبرد تفرد بذاكرته القوية وكثرة الاستحضار وحسن العبارة وفصاحة اللسان[1].

ويبدوا أن تلك المماحكة أصبحت مثلا يضرب لشدتها ولوقوعها من باب المحصَل، وإن كان أكثر المتابعين جاروا المبرد وانتصروا له حتى قال السيرافي : (وكان بينه وبين ثعلب من المنافرة ما لا خفاء به، وأكثر أهل التحصيل يفضلونه)[2].

ومع ذلك فقد استطاعا أن يبلغا شأواً كبيراً عندما أصبحا علمين في جيلهما، يقول ابن أبي الدنيا محفزاً

طلاب العلم[3] :

أيا طالب العلم لاتجهلن وعذ بالمبرد أو ثعلب

تجد عند هذين علم الورى فلا تك كالجمل الأجرب

علوم الخلائق مقرونة بهذين في الشرق والمغرب

وكانت العلاقة بين الرجلين على اختلافهما في بعض الرؤى قوية ومؤسسة على الاعتراف المتبادل والإقرار للآخر مما أكسبهما احترام الجميع والتوقف عن المفاضلة بينهما، قال أبو عمر الزاهد:(سألت أبا بكر ابن السراج فقلت : أي الرجلين أعلم :ثعلب أم المبرد فقال : ما أقول في الرجلين العالم بينهما)[4].

---

[1]- تاريخ آداب اللغة العربية،جرجي زيدان، الجزائر، موفم للنشر،(د ط)، 1993 ج2 ص328.

[2]- بغية الوعاة، السيوطي،مرجع سابق، ج1ص:223.

[3]- وفيات الأعيان،مرجع سابق، ص314،ج4.

[4]- معجم الأدباء ج5،ص137

ونقل الزبيدي في طبقات النحويين والبصريين فقال (كان إذا تلاقيا على ظهر الطريق تساءلا وتوافقا) رحمهما الله[1] .

لكن الشائع بين الناس والذي أصبح مكرساً هو المنافرة والعداوة التي غدت مضرب الأمثال في الخصومة واللدد والاختلاف على المبدأ والمنطلق .كما قال أحد الشعراء[2] :

وكفى حزناً أنا جميعاً ببلدة ويجمعنا في أرض برشهر مشهد

وكل لكل مخلص الود وامق ولكننا في جانب عنه مفرد

نروح ونغدو ولا تزاور بيننا وليس بمضروب عنه موعد

فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كأنا ثعلب والمبرد

د/ وفاته :

تكاد تتفق المصادر المترجمة لسيرته على أنه توفي رحمه الله يوم الاثنين سنة (285 هـ)، [3] لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة، ودفن بمقبرة باب الكوفة بالعراق في دار اشتريت له، ورثاه الشعراء بدمع سخي، قال

أحدهم[4] (استحضر فيها اسم ثعلب أيضا) :

ذهب المبرد وانقضت أيامه وليذهبن إثر المبرد تعلب

بيت من الآداب أصبح نصفه خرباً وبقي بيتها فسيخرب

---

[1]- طبقات النحويين واللغويين ص158.

[2]- بغية الوعاة، ج1ص

[3]- البلغة في تراجم أيمة النحو واللغة، الفيروز أبادي، تح: محمد المصري، القاهرة: دار سعد الدين ط1، 1421، 2000م ص286

[4]- وفيات الأعيان، ج4،ص319

فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا الدهر أنفسكم على ما يسلب
وتزودا من ثغلب فبكأس ما شرب المبرد عن قريب يشرب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب

2- المدرسة البصرية و تشكل الشخصية :

البصرة مركز إشعاع للغة و الفكر، ولمكانها زخم ألقى بظلاله على ساكنتها بما يوجد فيها من علماء وفرق كلامية وجدل ومناقشات لمختلف القضايا العلمية التي كانت تشغل بال المهتمين بالشأن الثقافي،وهم أهل جدل وكلام واختيارات فقهية و لغوية مختلفة .

واحتلت البصرة مكانتها العلمية منذ الجيل الأول من اللغويين من أضراب أبي عمرو بن العلاء (154هـ)، وهو أحد القراء السبعة، وكان عالما بالعربية وغريب ألفاظها وبالقرآن و أيام العرب، وعاش بها الخليل ابن أحمد الفراهيدي وسيبويه وغني عن القول إبراز مكانتهما في اللغة العربية نحواً وعروضا ومعجمية وجمعاً للغة. وإن كان بعضهم جعل أول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن أبي إسحاق الخضر مي(ت 117هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ) لأن الأول كان الرائد في تقعيد النحو ومد القياس وشرح العلل، وأما الثاني فهو أول من صنف في النحو كتابين هما : الإكمال والجامع [1].

وكان للمدرسة البصرية قصب السبق في إرساء قواعد النحو العربي أكثر من الكوفة، بفضل احتكامها وميلها للقياس وتأطير العربية بنظرية العامل التي يمكن عدها قوام النحو العربي.[2]

---

[1]- تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، مصر، دار المعرفة ن ط6، (د ت) ص121.

[2]- المصدر نفسه، ص124

وأنتجت مدرسة البصرة كوكبة من فطاحلة علماء اللغة والأدب استطاعوا أن يكونوا تراثا علميا وبلاغيا ولغويا مثل المادة المعرفية لتلامذة المدرسة ومتعلمي الدرس اللغوي يومها .

وفي أحضان المدرسة البصرية نشأ المبرد ينهل من معينها وعلمائها وخاصة الكتاب الأساس في النحو العربي، أعني بذلك (الكتاب) لسيبويه، الذي اعتبره البصريون آية متعالية وسموه (قرآن النحو) تلقاه المبرد عن الجرمي ثم عن المازني .

ومن شيوخه البصريين أبو حاتم السجستاني (ت280 هـ) الذي تخصص في المعجمية و دون أروع كتبه عن (النخل) و(الطير) و(الجراد) و غيرها، وربما كان له الفضل في توجيه المبرد نحو الأدب و قضايا أخرى غير النحو .

ولشغفه بالعلم فقد كثر مشايخه، منهم الجاحظ (ت 255)، والرياشي، التوزي، وأحمد بن طيفور، وإسماعيل بن إسحاق، ومحمد بن علي البصري ..وغيرهم ذكرهم الأستاذ حسن حمد في مقدمة تحقيقه لكتاب (المقتضب)، وقد زاد عددهم عن الثلاثين و نيَف. (المقدمة ص13).

3- **التقافة الموسوعية و التكوين الراسخ :**

تأتى للمبرد أن يلم بثقافة عصره وأن يطلع إطلاعا واسعا على التراث العربي من القرآن الكريم، والحديث الشريف، و أيام العرب، و النحو، و البلاغة، و استطاع أن يستوعبها بما وهبه الله عن موهبة الحفظ و الاستذكار قال عنه نفطويه (ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه)[1]

[1]-بغية الوعاء،ج1، ص 123

وكان يستعرض بحافظته على غريمه ثعلب و يزيد عليه بفضل آخر هو الفصاحة والبيان، ولذلك حكى الرواة[1] عنه محبته للمناظرة والاجتماع بغريمه.

تخرج من مدرسة المبرد العديد من العلماء عدهم محقق كتابه "المقتضب"[2] حوالي أربعين عالماً منهم الأخفش الصغير، وابن أبي الدنيا،وأبوبكر الجرجاني، والحكيمي، والخزار، الزجاج، وابن درستويه، وأبوبكر الصولي، وإسماعيل الصفار، ونفطويه، وابن السراج الذي تولى تهذيب وتخفيف ثغول كتاب سيبويه،وله كتاب الأصول اعتنى فيه بعلل النحو ومقاييسه،وتبدوعليه آثار دراسة المنطق من خلال تقاسيمه[3].

وترك المبرد للمكتبة العربية ثروة هائلة من المؤلفات، حقق بعضها ولا يزال البعض الآخر في حكم الضائع، فمن إنتاجاته:

- الاشتقاق.
- إعراب القرآن
- التعازي والمراثي
- الاختيار
- أسماء الدواهي عند العرب
- أدب الجليس
- الحروف في معاني القرآن إلى سوؤة طه
- الرد على سيبويه
- الخط والهجاء
- الحث غلى الأدب والصدق...إلخ

---

[1]–بنظر وفيات الأعيان ج4 ص 314، شذرات الذهب ج2 ص 192 معجم الأدباء ص 118

[2]– المقتضب،تح: حسن حمد،مج1–2،ص:13

[3]–تاريخ الأدب العربي،شوقي ضيف،ج4،ص:147

والباحث يرى من خلال منجز التأليف هذا تنوع المجالات الواسعة التي كتب فيها المبرد ما بين نحو، وصرف، وبلاغة،وعروض، وأدب، وأخبار، وعقيدة، وقرآن، وحديث وغيرها،وهي تنم على ثقافة موسوعية،وإن كان غلب عليها الدرس اللغوي ولاسيما النحو، وتلك ميزة طبعت مدرسة البصرة. فهم

" أصحاب الفضل في وضع النحو وترقيته وتنسيقه،بدأ بذلك أبو الأسود فوضع بعض قواعده وأخذ يلقيها ويعلمها لمن شاء من الأدباء والقراء"[1] .

وغلب على تأليف المبرد مجال تخصصه وهو اللغة، حيث استحوذ المنجز التأليفي على أكثر من ثمانين بالمئة، خصصت للغة وآدابها، ومع ذلك يسجل الباحث انفتاح المبرد على مجالات أخرى بعيدة عن تخصصه كالعقيدة والحديث والأنساب والأخبار ليكشف قدراته وتنوع معلوماته واتساع ذخيرته العلمية التي احتوت صنوفا من المعرفة المؤطرة لروح عصره وبزاده استطاع أن يحفر اسمه بين كبار العلماء.

ولم يقتصر إنتاج المبرد على جانب التأليف والتصنيف إنما تواصل مع الإبداع وجادت قريحته بالشعر الذي لم يكن مبتذلا أو مرذولا، وقد ذكر الزبيدي[2] صحة قريحته وقوة شعره،وأنه لم يكن من المتقولين أو المنتحلين للشعر، ووصف أشعاره بالكثيرة،وممن عني بقريضه المرزباني[3] في كتابه "معجم الأدباء" ونقل بعض أشعارها ومنها قوله يمدح المعتصم:

جهرت بحلفة لا أتقيها لشك في اليمين ولا ارتياب

بأنك أحسن الخلفاء وجها وأسمح راحتين ولا أحابي

---

[1]–تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان،ج2،ص:194

[2]–إنباء الرواة،ج3،ص: 247

[3]–معجم الشعراء، ص: 450

وأن مطيعك الأعلى جدودا ومن عاصاك يهوى في تباب

ومن شعره أيضا وقد قام لرجل أ تاه على دابة وعلى كتفه طيلسان أخضر فقام له المبرد رغم استغراب أحد الحضور فقال:

أينكر أن أقوم إذا بدا لي لأكرمه وأعظمه هشام

ولا تعجب لإسراعي إليه فإن لمثله ذخر القيام

ومن شعره أيصاَ:

لئن قمت ما في ذاك مني غضاضة علي، ولكن الكريم مذلل

على أنها مني لغيرك هجنة ولكنَها بيني وبينك تجمل

ونستنتج أن شخصية المبرد كانت قوية من خلال أعماله وإنتاجه العلمي والأدبي ونظير ما خلف في عقبه من تلامذة كانوا من فطاحلة الدرس اللغوي وأكملوا مشروع أستاذهم وعنوا بالبحث والاستقصاء.

ومما يؤكد قوة شخصيته أنه استطاع أن يوقف تلك الهجمة الشرسة للغويين على شعر المحدثين –كما سيأتي – من أضراب أبي تمام الطائي، الذي شكل انزياحا وكسرا لاعتيادا ت اللغة المستمدة من نظرية عمود الشعر ،وأن يجيز استحضار أشعارهم ويقبل منهم ويرد رغم خلفيته اللغوية.

كما أن المبرد الأزدي استطاع أن يكسر حواجز اللسانيات الجغرافية التي استبعدت قبيلته

" الأزد"بوصفهم متاخمين للفرس من الاحتجاج اللغوي عند جامعي اللغة، ولكنه تضلع في اللغة حتى تفوق على شيخ المدرسة الكوفية ثعلب في جوانب معرفية كالفصاحة و البلاغة والرأي.

كشف المبرد عن مكانته العلمية والنقدية والفكرية عندما ناقش في مؤلفاته،ولاسيما "الكامل" القضايا الأدبية المطروحة في عصره برأي يستدعي الذوق الأدبي والمعرفة والمنطق والتوسط والاستقلال والتقريب والتهذيب.

4- المواقف وأدوات التفكير:

عبر المبرد عن استقلاليته في الرأي وأنه لم يكن من الدهماء يقبل سوقي الكلام وخطيه والشائع بين الناس،وأكد عن أصالة فكره من خلال القضايا التالية:

أ- الموقف من الشعر المحدث:

عندما جاء المبرد كانت روح العصر تسيطر عليها نظرة الانتصار للقديم ورفض كل جديد، وعدم الاحتجاج بشعر المحدثين وإن ملحت ولاسيما عند المشتغلين باللغة وجمعها من أمثال ابن الأعرابي،فعمد المبرد إلى الإسراع إلى تبني الشعر المحدث،وأعطاه شيئا من تعاطفه، واعتمده أصلا من أصوله،فتراه يدرس لتلميذه ابن المعتز قصيدة لأبي نواس ويشرحها له.

وحاول أن ينصف المحدثين على ضعفهم وقلتهم أحياناً إلا أنه توسط بمقولته الرائعة وكشف عن ذائقة أدبية رفيعة عندما قال:"وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق"[1].

والباحث يجد في ثنايا كتبه ميلا عفويا في بعض الأحيان اتجاه القديم،لأن صلته بالمحدث قد لا تتجاوز العطف والشفقة، وتجد في كلامه تساوقا مع

[1]—الكامل، المبرد،تح :د عبدالحميد هنداوي، ج1 ص:58

النظرة القديمة لغلبة سلطانها عليه،وقد يكون ذلك لا شعوريا،ولأنه من صميم ثقافته1.

ومع ذلك عقد فصلا في كتابه "الكامل" خاصا بالمولدين وصدرها بعبارته الشهيرة" هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة يحتاج إليها للتمثل، لأنها أشكل بالدهر ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب"2

ب – استعمال القياس: :

كان المبرد مولعا بالقياس رغم خلفيته البصرية التي تقدم السماع، ولكنه تمسك بالقياس في تحرير مسائل النحو ووضع قواعده،عندما أراد التفريع من الأصول والتدليل على اختيارات المدرسة البصرية، كما عبر عنه أبو الفتح ابن جني في العبارة السابقة"كان جيلا في العلم،وإليه انتهت مقالات أصحابنا(يقصد البصريين)، وهو الذي نقلها وحررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها" .

والمطلع على كتابه "الكامل" أو" المقتضب" يلمس نزعة القياس وكثرة استعمالاته له كأن يقول" ألا ترى أنك تقول:نعم القائد زيد، ولا يجوز نعم الذي قام زيد،فإنما هو بمنزلة قولك: نعم الرجل زيد، وهذا الذي شرحناه متصل في هذا الباب كله، مطرد على القياس"3

ج–تعليل الإعراب: أكثر المبرد من تعليلات الأحكام الإعرابية،واستكثر منها في تحرير قضايا النحو وتقعيد قواعده، ومعروف أن أبا إسحاق الحضرمي هو

---

[1]–تاريخ النقد الأدبي عند العرب،إحسان عباس،دار الشروق،ط1، 2001م، ص:79

[2]– الكامل المصدر نفسه،ج1،ص:329

[3]– الكامل، تح: حنا الفاخوري،بيروت،دار الجيل،2005م، ج2ضص:323

أول من مد في القياس وعلل النحو،وتبعه بعد ذلك من جاء بعده، ويغلب على اعتقاد بعض الباحثين أن تعليل الإعراب انتقل إلى الفكر العربي بعد ترجمة كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية في العصر العباسي1.

غير أن المبرد أوغل في بسط العلل عندما اشتق الفروع من الأصول،وزاد بأن عمد إلى مباحث جديدة وتعريفات مبتكرة في العوامل المضمرة والظاهرة ومواقع الإعراب،ولكنه أفرط فيها،إذ كل رأي لا بد له من علة أوعلل تسنده[2].

ويبرز لك فكر المبرد النحوي في تعليله للإعراب بنفس منطقي وسياق للحجج المقنعة التي تدل على إطلاعه على المنطق ومادة الجدل لشرحه الأسباب والمسببات والشئ ونقيضه، كمناقشته لقول الأعشى معاتبا: **هريرة ودعَها وإن لام لائم**

قال المبرد " هريرة منصوب بفعل مضمر وتفسيره،ودعها كأنه قال: ودع هريرة فلما اختزل الفعل أظهر ما يدل عليه، وكان ذلك أجود من أن لا يضمر،لأن الأمر لا يكون إلا بفعل،فأضمر الفعل إذ كان الأمر أحق به،وكذلك :زيداً أضربه، وزيداً فأكرمه،وإن لم تضمر ورفعت جاز، وليس في حسن الأول ترفعه على الابتداء وتصير الأمر في موضع خبره"[3]

---

[1]– تاريخ آداب اللغة العربية،جرجي زيدان، ج2،ص:196

[2]– تاريخ الأدب العربي،شوقي ضيف،ج4،ص:147

[3]– الكامل، المصدر نفسه،ج2،ص: 539

د – محاولته الكشف عن السرقات:

حاول المبرد استباق ابن قيبة في اكتشاف ظاهرة السرقات الأدبية،وأبان عن حاسة نقدية كبيرة في غير ما موضع من كتابه الكامل حين علق على بعض الأبيات، ومن أمثلة ذلك:

أنه أورد هذين البيتين:

إني شكرت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علمي

ورأيته أسدى إلي يدا لما أبان بجهله حلمي

قال المبرد"إنما أخذ هذا المعنى عن قول رجل من قريش لرجل قال له إني مررت بقوم من قريش من آل الزبير وغيرهم يشتمونك شتما رحمتك منه.قال:أفسمعتني أقول إلا خيرا،قال : لا، قال: أياهم فارحم"[1]

ووقف عند قول إسماعيل بن القاسم:

قد لعمري حكيت لي غصص المو ت وحركتني لها وسكنتا

قال المبرد" من قول نادب الإسكندر،فإنه لما مات بكى من بحضرته فقال نادبه: حركنا بسكونه"[2]

د– تلقي القرآن الكريم:

ألف المبرد في علوم القرآن كالقراءات ومعاني الحروف في القرآن وكتابه التام" معاني القرآن" الذي يبدو أنه استقبله في مواضع محددة مما ليس فيه رأي للسابقين استقبالا أعجب من سمعه، قال السيرافي" سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول : ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم" وإن صحت نسبة الكلام فهو دليل على تحرر فكر المبرد وأخذه بمبدأ

[1]–الكامل، المرجع السابق،ج2ص:323

[2]– المصدر نفسه،ج1،ص330

التفسير بالرأي، ويكون بذلك على خلاف مع المدرسة الأثرية التي تستبعد القول بالرأي في القرآن الكريم.

هـ- نظرته لقضية اللفظ والمعنى:

عبر المبرد عن موقفه من قضية اللفظ والمعنى، ولكنه لم ينصاع وراء الإعجاب بأحدهما دون الآخر،وإن حكم عليه الأستاذ إحسان عباس رحمه الله بالتأثر بروح عصره ومصطلحه[1]،إلا أنني أسجل تأكيده على الاختصار واللمحة الدالة، اللفظ القريب المعنى والفهم لدى المتلقي، يقول" من ألفاظ العرب البينة القريبة المفهمة، الحسنة الرصف، الجميلة الوصف كقول الحطيئة:

وذاك فتى إن تأته في صنيعة إلى ماله لا تأته بشفيع

وكقول عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم"[2]

وعبر عن تفضيله للواضح من الكلام والقول العذب دون استعانة بمزيد من الوسائط، لأنه بذلك يتخلص المتكلم من التكلف، ويسلم من التزيد ويبعد عن الاستعانة. [3]

و- محاولة تهذيب النحو:

لا يخفى على دارس القيمة العلمية لكتاب سيبويه، والصدمة الكبيرة التي أوقع فيها المتلقي المعاصر له، لما فيه من الفروع والعلل والتخريجات التي فاقت

---

[1] -تاريخ النقد عند العرب، ص:82

[2]—الكامل،تح :د عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد بيضون، ط2002،1م،ج1،ص:56

[3] —المصدر نفسه، ج1،ص:58

الكثير من المستويات،وكان المبرد يقول إذا جاءه أحد يستقرئه الكتاب فيقول له: هل ركبت البحر؟ تعظيما للكتاب واستصعابا لما فيه.[1]

انبناء الشخصية العلمية المفكرة ذات الرأي المستقل جعلته يتولى تهذيب كتاب سيبويه، الذي استغلق على فهم المتلقي ومساوقة خرائطه المفاهيمية، حتى تناوله وفتح مستغلقه وخفف شحنه وعقل بعض جنونه وبرد سخونته ونشره بين العوام والطلبة قبل أن يأتي تلميذه ابن السراج فيكمل تهذيب الكتاب.وأراد المبرد كسر تلك النظرة التقديسية على كتاب سيبويه فانتقده في غير ما موضع من كتبه مثل" المدخل إلى كتاب سيبويه" وكتاب "الرد على سيبويه" وكتاب" فقر كتاب سيبويه"، ولما رأى استصعاب الناس للنحو سلك طرقا أخرى في كتابه"الكامل" تتوخى الأخبار والنكت والنوادر دفعا للملل وتسهيلا لتناول القضايا اللغوية المستعصية،وإن أخذ بعضهم عليه ضعف الوحدة التأليفية لانصرافه إلى توفير ما يدفع السآمة على القارئ، وتلك نباهة سبق بها دعاة تيسير النحو في عصرنا.[2]

أما منهجه في النحو فإنه ينم عن منهجية محكمة تبرز التزامه الفكري قبل المذهبي(البصري) وهو يقوم على ما يلي:

- كثرة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم
- قلة الاستشهاد بالحديث الشريف باعتبار أن الحديث قد يروى بالمعنى.
- الإكثار من الاستشهاد بالشواهد الشعرية التي ترجع لشعراء معتبرين و لو كانوا محدثين،وقد بلغت الشواهد النحوية في كتابه" المقتضب" حوالي 560 بيتا

[1]–تاريخ آداب اللغة العربية،جرجي زيدان،ج2،ص:196

[2]–تاريخ الأدب العربي، ح الفاخوري،ص: 756

- استحضار الأمثال العربية والحكم وبعض النثر .
- الالتزام بالقياس التزاما شديدا .

الخاتمة

بعد رحلة ماتعة في كتب التراث والسير والتراجم وبعض كتب المبرد اكتشفت فيها جوانب كانت غامضة لدي حول المبرد وشخصيته وأعماله وآرائه في اللغة والأدب، توصلت لجملة من النتائج أهمها

1) أسهمت المدرسة البصرية بعلمائها وتراثها العلمي والأدبي في إغناء وإثراء الأدب العربي بشخصيات علمية وفاعلة وأبحاث قيمة.
2) يحتفظ أبو العباس المبرد بثقافة موسوعية تأسست على استيعاب ثقافة عصره أهلته للنبوغ والتفرد
3) للمبرد شخصية قوية وملكة علمية وفرت له الاستقلالية والتحرر من الآراء السائدة ومحاولة تكسير الخطية السائدة
4) توظيف المبرد للعلل والأقيسة دليل على انفتاحه على ثقافة الآخر وتفاعله مع الفكر الوافد .
5) أسهم المبرد وتلاميذه بإنتاجاتهم وأفكارهم في محاولة تهذيب النحو والتقليل من غلوائه من خلال التسهيل ودفع السآمة وتبسيط مسائله.
6) تلقي القرآن الكريم بأفق انتظار غير مألوف في زمانه ولاسيما الميل إلى القول بالرأي والبحث عن المعنى الذي لم يسبق إليه

قائمة أهم المصادر والمراجع

1. –فجر الإسلام، أحمد أمين، دار صادر الجزائر، (د، ط) 2009.
2. بغية الوعاة، الحافظ السيوطي، تح: محمد عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية،ط1، 2004م.
3. المقتضب، المبرد، تح: حسن حمد ن بيروت : دار الكتب العلمية، ط1420،1– 1999.

4. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان،بيروت: دار صادر(دط)
5. ، تاريخ أدأب اللغة العربية، جرجر زيدان، الجزائر : موفم للنشر،(د ط)، 1993 328.
6. البلغة في تراجم أيمة النحو واللغة، الفيروز أبادي، تح: محمد المصري، القاهرة: دار سعد الدين ط1، 1421، 2000م .
7. تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، مصر، دار المعرفة ن ط6، (د ت)
8. الكامل، تح: حنا الفاخوري، بيروت، دار الجيل،2005م
9. الكامل،تح :د عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد بيضون، ط2002،1م